مَحَبَّةُ الله
فَيْضُ كلّ محبّة..؟؟

﴿ومِن النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٦)

بقلم: جمال أغزول

(المملكة المغربية)

ما أكثر رغبات النفس وجذباتها وبهجة الحياة الدنيا وإغراءاتها حيث إنها لا تتوقف عن تحريض الناس في طلب زخرفها، فيزدادون حبًّا وشغفًا لمادياتها الفانية فترضخ مشاعرهم وتخلد قلوبهم إلى الأرض.

وأشدُّ خطأ يقع فيه عامة الناس هو فَهْمُهُمْ للحياة وماهيتها والغاية منها إذ يكتفون بحُبّ مادياتها، ويفوتهم، بفعل ما عَمِيَتْ به بصيرتهم، أن هنالك محبّة أزلية دائمة تتطلع إليها فطرة الإنسان بكل شغف، ألا وهي محبّة الله عز وجل والفناء فيه سبحانه وتعالى في علاقة فريدة تختلف عن كل العلائق والصِّلات، يُشع من خلالها حُبّ الله فيضًا ونورًا، جودًا ورحمة، سُموًا وجمالا. تلك المحبة التي لا يَفْقَهُها سوى من هُم في سِلْكِ العبودية التامة لله، الذين تذوقوا طعمها، ففضلوها على كل متعة من مُتع الحياة..

وصدق من قال إن حياة الإنسان تُقاس بمقدار حُبّه، فيوم ينتهي حبّه تنتهي حياته. ولا يخلو إنسان من مشاعر الحب، ولكن يتفاوت هذا المقدار من شخص لآخر من حيث المعنى والنوعية والغايات. فهناك من يُحبّ عمله ويتفانى فيه، فإذا ما أخفق فيه توارى عن أنظار الناس ويئس من الحياة وتمنى لو أدركته المنون. وهناك من يحبّ وطنه ويذود عنه في ساحات القتال، فيلبي نداء الوطن إذا دعاه ليسترخص في سبيله المال والأهل والولد! وهناك حبّ الوالدين لأبنائهم حيث يضحون في سبيل تحصيل موارد العيش لهم ولإسعادهم ويذوقون الأمرّين في هذا السبيل. وهنالك من يُحبُّ الفضيلة ويسعى بها بين الناس آملا اجتثات نوازع الرذيلة في المجتمع ليسود الخير مُرفرفًا بجناحيه حُرًّا طليقًا فوق قِمَم الفضائل الأخلاقية المُثْلَى. فلْيُراجع كلٌّ منا نفسه ليجد أن له فيها حُبًّا ما، لأنّ الحب نزعة فطريّة وضعها الله في خَلْقِهِ رغم التباين بينهم في معناه ومقاصده، فإما وضيع أو سامٍ نبيل. إن جميع أنواع الحبّ لها نهاية إلا حُبّ واحدٌ فهو خالدٌ لا يموت بمغادرة الدنيا لأنه مستمرّ في رحلة الحياة الأخرى الخالدة حيث يتجلّى على أولئك المؤمنين الذين تعلّقت قلوبهم بحب الله في الحياة الدنيا، ليُسعَدوا أيضا في الآخرة بلقائه في جنّات

النّعيم.

إن عالمنا بأمَسّ الحاجة إلى الحب الصادق، وهذا ما تنادي به الصيحات هنا وهناك، ولكنه سرعان ما يقضي على صداها كثير من الأحقاد والكراهية، فنراها تختص بمحبّتها فئة دون أُخرى وأفراد دون أفراد على أسس اللون أو العرق أو الدّين، فما أقربَ هذا الإدعاءَ إلى الشّفاه وما أبعدَه عن القلوب!

وما أجهلَ هؤلاء بِكُنه المحبّة الصادقة التي لا يمكن تجزئتها بمثل ما فهموه، لأن المحبّة مشاعر إنسانية عامة لكل الناس وإلا كانت نوعًا من المُحاباة التي تتستّر بين طيّاتها الأحقاد الدفينة وأحاسيس اللظى الملتهبة والتي يُخشى من أن تتأجج نيرانها المحرقة لتنفث أدخنة متصاعدة أكثر مما هي عليه اليوم من شحناء وبغضاء .. فمن الحكمة أننا إذا أردنا السُّمو بأحد فعلينا أن نُعلّمه تلك المحبّة الحقيقية الشاملة التي هي فيضُ كلّ محبّة، ألا وهي محبّة الله، تلك المحبّة الحقّة الكاملة التي هي قُصوى غايات المُحبين الصادقين الذين فَقِهوا كُنْهَ الحُب. إنها محبّة من لون خاص لا تُدانيها أيةُ محبّة في الوجود، وهي منبعٌ فيّاض ترتوي منه نفوس المؤمنين فَتُحيط بمعانيها الكاملة والشاملة لِتُشِعَّ منهم على كلّ شيء من خَلْقه كشمس مُشرقة. إنها محبّةٌ تَعكس صفات رحمانية الله ورحيميته في عباد مُحبّين له سبحانه وتعالى ومؤثرين رِضاه على رِضى المَخْلُوق، وجعلوا حياتهم تطوف في مدار حبّه تعالى، فاعتبروا كل شيء في الحياة مُظلما ما لم تُضئهُ محبّة الله، وكلُّ عمَلٍ لا لَذّة فيه ما لم يَكُن فيه رضى الله .. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلّم أسوة حسنة كونه ذلك الإنسان الكامل الذي عَشق ربّه بما لم يعشقه أحدٌ قبله أو بعده، فكان أن أحيط قلبُه الطاهر وكل ذرّة من جسده الشريف بحُبّ الله طيلة حياته الشريفة، فكان مظهرًا عظيما لصفات رب العالمين، ارتوت منه القلوب وارتقت بمحبّته أمم شتّى بما بَثّ فيهم تعليمه ودينه من نوازع المحبّة لله وخَلْقِه، فتولّدت منهما معانٍ سامية نبيلة تفيض شفقة ورحمة ومؤاساة.

إن محبّة الله هي أسمى أنواع المحبّة بل هي أمّ كلّ محبّة سامية طاهرة، فإذا كانت سائر أنواع المحبّة مستقلة بعضها عن بعض في سلوك الإنسان، فإن محبّة الله ليست كذلك لأنها شاملة غير مفككة تُشعُّ بدُرَرٍ بَهيّة من فيوض الرحمانية التي ترتقي بالعبد وتربيه ليرتفع في سُلم المقامات الروحانية.

ولهذا علينا أن لا نجعل حبّنا للحياة وملذاتها يفوق حُبّنا لله، لأن في هذا شِرْكًا ونفيًا للتوحيد. فالذين آمنوا أشدُّ حُبًّا لربهم ويتخذون من هذا الحُبّ مرجعًا لجميع قراراتهم. فحين يُحبّ المرء ربّه فإنه يبذل في سبيله المال الذي اكتسبه، فتُزرع في نفسه مشاعر العطف والإحسان تجاه الخلق الذين هم عيال الله، فلا يبقى في قلبه جشعٌ وحرصٌ، بل يصير ماله وسيلة قربه من الله. وحينما يؤتى أحدٌ حكمة أو معرفةً فيُعلّمها الناس حُبّا لله فترتوي منها العقول وتُبَصّر بها الأعين، فإنه بذلك يُدلل على مشاعر حبّ الله بما ينفع الخَلْقَ. فلا شك أن الإنسان الذي لا يُحرّكه وازعُ حُبّ الله نحو محبّة خَلْقِه لهو مقطوع الصلّة بذلك الإله الحق، الرحمن والرّحيم، وإلا فماذا ينفع تشدّق أحد بحبّ الله إذا كان قلبه خالٍ من الرّحمة تجاه خلق الله. وكان لا يشعر نحو بني جنسه بالعطف ولا يتقدّم نحوهم بقَدَمِ صدق لمواساتهم !!

ما أحوجَ البشريةَ لإدراك ما لمحبّة الله من أثر على القلوب للتخلّص من ويلات

الحـروب والـكـراهـيـة والعنصرية التي أثخنت وجه الأرض بجراح نازفة ما زالت تقطر دمًا، ولكن أنّى لها أن تفقـه كُنه هذا الحب وهـي لا تعرف الإله الحقّ الرحمن الرحيم، فاتخذت مـن دون الله أوثانا وصُلبانًا، واتبعت الهوى في دنياها بتكالبـهـا علـى الأمـوال والـثـروات لإشعال نار الحروب والفتن. فقست القلوب فأصبحـت كالحجارة أو أشد قـسـوة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أما مسلمو العـصـر فـقـد أساء كثير منهم إلى الإسلام ونسبوا إلى الدين الحنيـف خطاب العنف والـتـطـرّف بـدل الـرحـمـة والاعـتـدال، فـحـرّف المـشـايـخ سُـنّـة المصطفى ﷺ فعصبوا أعـين الناس الغافلين عن حقيقتها بضلالاتـهـم وأراجـيـفـهـم فقادوهم لمهاوي الشّر إرهابًا وتخريبًا في كل مكان، ممـا جرّ علـى الإسلام وديـار المسلمين فتنًا وحروبًا، وفتح الـبـاب لخصـوم الإسـلام، لأسر الأوطان وغزو الديار وسبي الرجال والسّطو على الخيرات.

لقد عـلّمنا سيـدنـا الإمـام المهدي عليه السلام وسيلةً للوصول إلى محبّة اللـه عـز وجل وذلك بالتعرّف على صفاته والانمحاء في الحضرة الأحدية باتباع تلك الأسوة الطاهرة للرسـول الأعـظـم صلى الله عـلـيـه وسـلـم.. فـكـان أن ربّـى جمـاعـتـه الإسلامية الأحمدية على محبّة الله والشفقة على خـلـقـه لدرجـة أن اشـتـرط عـلـيـه السلام على كل مبايع عند عهد البيعة ضمن شروطها العشر أن يتعهد أنه لا يؤذي بثورة الميول النفسانية أحدًا من خَلْق الله عامة والمسلمين خاصة، ولا يعتدي عليهم، لا بلسـانـه ولا بـيـده ولا بطريق آخر، وأن يظل لأجل الله وحده قائما بمواساة عامة خَلْق الله والإحسان إليهم، ويُفيد بني الإنسان بمواهبـه وكفاءاته ما استـطـاع إلى ذلك سبيلا.

هذا هو العهد الذي وضعه سيدنا أحمد عليـه الـسـلام حسب أمر الله للانضـمـام إلى سلك جماعته الربـانـيـة المباركة، والـذي لا يمـكـن بغيره أن يكون أحدٌ مسلما أحمديا صادقا. والذي يدعو إلى التفكير أن الرجل الذي يؤسس جمـاعـتـه عـلـى أن يعامل مبايعـوه غـيرَهم من المسلمين أو من خلق الـلـه كافـة بـإخـلاص وشـفـقـة وتعـاطـف ويـسـعـوا لخير الإنسانية جمعاء لهو إنسـان من طينة سمـاويـة مـقـدّسـة عرف كُنه محبّة الله وانمحى في صفاته بتجلياتـهـا، فـمـا أروع أن يكون نفسه أسوة وما أعظمَ ما يجب أن تكون أعماله مثالا وقدوة في جميع هذه الفـضـائـل والخـصـال الزكية. وذلك فضـل الـلـه عـلـى الإسـلام في الـزمـن الأخـير أن بـوّأ لـه خـادمـا مخلصًا وعـاشـقًـا صـادقًـا لـلـمـصـطـفـى ﷺ ولدينـه، رؤوفـا ورحـيـمـا بالبشرية الـتي بُعِـثَ رسـول الله إلـيـهـا لـيـكـون رحمـة للعالمين. لـقـد عـبّر عليـه السلام عن محبّته لخلق الله في مواضع كثيرة وأكد أنـه لا يُعادي أحـدًا، وأن قلبـه يفيض بحب جمـيـع الأمـم والشعوب بمثـل حـبّ الأم الحنون لأولادها، وأن عداءه هو فقط للمعتقدات الباطلة المعادية للحق، وواجبه يُحَتّم عليه كمبعوث سماوي خادم للإسلام الـتـبـرُّء مـن كـل كــذب وشِـرْكٍ وجَــوْرٍ وضلالة وفسوق.

نعم أيها القارئ الكريـم لـم يـكــن ذلــك ادّعــاءً فحسب، بل الحق أن كـل حياته الشريفة كتاب مفتوح تزخر بمواقف تنبض بمحبّة الله والشفقة عـلـى خَلْقِه. فعلينا مـعـشـر المسـلـمـين الأحمديين أن نكون عـلـى مستوى ذلك العهد الـذي عاهدنا عليه اللهَ حتى ننعم بنفحات محبّة الله ونـبـرهـن بسـلـوكـنـا للدنيـا قاطبـة أنّ محبّة الله فيــــضُ كـلّ محبّـــة.